جناية المعتزلة وعلم الكلام على عقل المسلم ودين الاسلام

ويليه

فلاسفة الاسلام وصراع الدين والفلسفة والعلم

بقلم

أحمد فوزي وجيه

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

كتبت مقالاً بعنوان (المعتزلة حماة أم جناة) نشرته على موقع مقال كلاود ثم وسَّعت البحث والكلام فيه فكان هذا الكتاب ..

تعريف المعتزلة:

المعتزلة فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري غلبت عليها النزعة العقلية فاعتمدوا على العقل في تأسيس مذهبهم وقدموه على النقل وقالوا بالفكر قبل السمع وبوجوب معرفة الله بالعقل وكذلك الحسن والقبيح فالعقل بذلك موجب وآمر وناه.

والمعتزلة بدأت بفكرة أو بعقيدة واحدة ثم تطورت لتشكل منظومة من العقائد والأفكار في مقدمتها الأصول الخمسة الشهيرة وهي:

1- التوحيد وهو اثبات وحدانية الله ونفي المثل عنه ومنه نفي الصفات فصفاته هي عين ذاته فهو عالم بذاته قادر بذاته لا بصفات زائدة عن الذات فليس لله صفات كصفة العلم والقدرة والسمع والبصر فهو سميع بلا سمع عليم بلا علم قدير بلا قدرة وهكذا... .

2- العدل ويعنون به قياس أحكام الله على ما يقتضيه العقل والحكمة وبناء على ذلك نفوا أموراً وأوجبوا أخرى منها نفي أن يكون الله خالقاً لأفعال عباده لأنه خلاف العدل وأن العباد هم الخالقون لأفعال أنفسهم إن خيراً وإن شراً ومنها وجوب الثواب على فعل ما استحسنه العقل والعقاب على فعل ما استقبحه وإن لم يرد في الشرع ثواب أو عقاب.

3- المنزلة بين المنزلتين ويعنون به حكم الفاسق في الدنيا وهي المسألة التي اختلف فيها واصل بن عطاء وهو أحد مؤسسي المذهب مع الحسن البصري إذ يعتقد المعتزلة أن الفاسق في الدنيا لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه ولا يسمى كافراً بل هو في منزلة بين المنزلتين فإن تاب رجع إلى ايمانه وإن مات مصراً على فسقه كان مخلداً في النار.

4- الوعد والوعيد وهو متعلق بالأصل الذي قبله والمقصود به انفاذ الوعيد في الآخرة على أصحاب الكبائر وأن الله لا يقبل فيهم شفاعة ولا يخرج أحداً منهم من النار.

5- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم يرون قتال أئمة الجور والظلم ووجوب الخروج عليهم عند القدرة وغلبة الظن بحصول الغلبة وازالة المنكر.

انظر كتاب (المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها لعواد المعتق)

وانظر "المعتزلة" في الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

قال أبو الحسن الأشعري: وأجمعت المعتزلة إلا الأصم على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان واليد والسيف كيف قدروا على ذلك. ه (مقالات الاسلاميين 278/1)

هذه نبذة مختصرة عن المعتزلة وعقائدهم ولعلك تستغرب من العنوان وتتساءل ماذا تعني بجناية المعتزلة وماذا فعلوا وهم أصحاب الفكر التنويري في العصور الوسطى

وهم من حاولوا التوفيق والجمع بين الاسلام ونصوصه الشرعية وبين الفلسفة والعقل والمنطق فما الخطأ في هذا وما هي جنايتهم ؟!

فهذه الأصول وغيرها من عقائد وأفكار عند المعتزلة لو تأملتها فستجدها تخدم هدفاً رئيساً واحداً هو عقلنة الدين أو درء تعارض العقل مع النقل وذلك عن طريق الدمج بين قواعد الفلسفة والمنطق وبين النص الشرعي ثم تقديم هذا المنتج وهذا التصور على أنه هو دين الاسلام الذي أنزله الله على خلقه وهذا هو الهدف الرئيس عند المعتزلة وهو اضفاء العقلانية والمنطقية والحكمة على الاسلام وأن الاسلام هو دين الحكمة والعقل لا دين الخرافة والجهل والغاء العقل.

كلام جميل ويظهر منه الحكمة !

لذا يأتي السؤال مرة أخرى:
ما هو القبيح في منهجهم وما هي جنايتهم ؟

ابتداءً يتبين لنا مما سبق أن المعتزلة هم أول من أسس منهج الجمع بين طرائق الفلسفة والمنطق وبين نصوص الاسلام وأحكامه لعقلنة الدين واضفاء المنطقية على عقائده وأحكامه وذلك طبعاً من منظورهم وبحسب فهمهم
ومنهم خرجت بعد ذلك كل الفرق والمناهج التي قامت على محاولة الدمج بين الفلسفة والدين والقيام بالتفسير العقلي لعقائد الاسلام وأحكامه عبر التاريخ من أشاعرة وماتريدية وكرامية وشيعة ... الخ.

فأبو الحسن الأشعري (ت 324ه) إمام الأشاعرة الذين هم جمهور فقهاء أهل السنة خرج من عباءة المعتزلة وتأثر بهم وأخذ منهجهم في محاولة اثبات العقائد والرد على المخالف بحجج العقل والمنطق حتى في الرد على المعتزلة أنفسهم فيما خالفوا فيه أهل السنة
وتبعه على ذلك تلامذته وكبار أتباعه من بعده كأبي بكر الباقلاني وأبي سهل الصعلوكي وابن خفيف الشيرازي وابن فورك وغيرهم.

ثم أتى بعد ذلك إمام الحرمين أبو المعالي الجويني وتلميذه النجيب أبو حامد الغزالي فوضعوا الأسس والقواعد الكلامية للمذهب الأشعري الذي نعرفه الآن والذي يجمع بين العقل والنقل على أسس المنطق وتأويل النص والرد على الفرق الأخرى المخالفة للمذهب
وهذا هو المنهج النقدي الفلسفي الذي أسسه المعتزلة.

فهذه الطريق أول من رسمها ووطئها هم المعتزلة فهم أول من أدخلوا الفلسفة والمنطق في فهم العقائد ومعرفة الأحكام بدلاً من الاكتفاء بالنص المنقول من القرآن وأحاديث الرسول وفتاوى الصحابة والتابعين.

وتبعهم بعد ذلك سائر طوائف المسلمين وزادوا وتوسعوا حتى جعلوه علماً مستقلاً وهو ما يعرف بعلم الكلام.

وقد عارض هذا المنهج أهل الحديث والأثر أئمة السلف الصالح
وحجتهم في ذلك أن هذا المنهج يستلزم منه رد بعض نصوص الشرع بزعم مخالفة العقل وهذا الرد قد يكون برفض النص وانكاره كما فعلت المعتزلة بجملة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كأحاديث القدر والشفاعة ورؤية الله في الآخرة.

أو يكون الرد بتأويل النص واخراجه عن ظاهره إلى معنى آخر متكلف ليس هو المعروف أو المتبادر إلى الذهن وليس عليه العمل في صدر الاسلام فلذلك اشتد نكيرهم على منهج المعتزلة وعارضوه منذ نشأته.

ومن هنا كثر الشقاق والافتراق بين طوائف المسلمين
فمن مؤيد للمعتزلة في تحكيم العقل والمنطق على النص الديني وتأويل ما يظهر منه مخالفة المعقول
ومن معارض لهذا المنهج العقلاني ومؤيد لمنهج السلف والجيل الأول من المسلمين الذين ارتضوا بالاسلام ديناً ولم يتعمقوا في دلالة الألفاظ وما وراء ظواهر النصوص وما يترتب على هذا من الخوض في الغيبيات واقحام العقل في تصور أمور لم يدركها ولا علم له بها إلا من خبر النص القرآني وأقوال الرسول الكريم.

إلى هنا تختلف الآراء ويحتدم النقاش بين مؤيد ومعارض وموافق ومخالف ثم يكثر الجدال والحوار تارة والتعصب والهجوم تارة أخرى.

لكن ثمة أمر مهم كان له عظيم الأثر في عقول أبناء العالم الاسلامي بسبب الدمج بين الفلسفة وبين النص الديني وتأويله.

ففي الوقت الذي يرى جماهير المثقفين المسلمين هذا المنهج الذي يجمع بين العقل والنقل هو الطريق الصحيح لفهم الدين وترسيخ الايمان به إلا أنه في حقيقة الأمر قد أضر الدين وأضر العقل والعلم معاً.

أضر الدين بأن أدخل فيه ما ليس منه من تأويلات متكلفة يبعد أن يكون هذا هو مراد الشارع منها
وجدليات فلسفية عقيمة ليس من ورائها علم نافع ولا عمل صالح
ليس إلا الحيرة وكثرة اختلاف الأمة وتفرقها شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون وله يتعصبون وعليه يتقاتلون ويتباغضون
وهذا من أعظم الضرر في الدين والدنيا معاً.

الأمر الثاني وهو بيت القصيد في البحث ألا وهو الاضرار بالعقل والعلم لماذا ؟

لأنه أشغل العقل وصرفه عن نشاطه الطبيعي والمطلوب منه ألا وهو التفكر في هذا الكون العظيم والبحث فيه وادراك عظيم قدرة الله وحكمته {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} ثم النظر والبحث في تفاصيل هذا الكون وما فيه من أجرام سماوية وظواهر أرضية وقوانين ومادة قابلة للتطوير والاختراع لنفع البشرية وسعادتها.

فبدلاً من ذلك كله شغلوا العقول المحبة للحكمة والشغوفة بالبحث والمعرفة شغلوها بالتأويلات والجدليات وتحقيق مسائل الاختلاف بين الفرق والمذاهب

فصار عقل المسلم منشغل بالتفكير في تحقيق الأدلة والحجج المنطقية التي يستدل بها على صحة مذهبه ثم استفراغ الجهد العقلي والفكري في الرد على استدلالات مخالفيه ومحاولة ابطالها !

وكم من آلاف العقول في الثقافة الاسلامية انشغلت بالقيل والقال والتحقيق والرد وأهدروا في ذلك الوقت والجهد وطاقة العقل وذكائه
ثم ماذا بعد ذلك ؟

ليس إلا الحيرة والتشتت والاختلاف كما قال الفخر الرازي المتكلم الشهير:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ: قِيلَ وَقَالُوا.
(عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص468)

وقال الشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل في كتابه نهاية الإقدام في علم الكلام (ص7):
لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ.

وقال ابن رشد الفليسوف فِي كِتَابِهِ تَهَافُتِ التَّهَافُتِ (ص376):
لم يقل أحد من الناس في العلوم الإلهية قولا يُعتد به. ه

وقال أبو العباس القرطبي في المفهم (692/6):
وقد رجع كثير من أئمة المتكلمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة وآماد بعيدة لما لطف الله تعالى بهم وأظهر لهم آياته وباطن برهانه فمنهم إمام المتكلمين أبو المعالي فقد حكى عنه الثقات أنه قال:
لقد خليت أهل الإسلام وعلومهم وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه كل ذلك رغبة في طلب الحق وهربا من التقليد والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز وأختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص والويل لابن الجويني.

وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به. ه

انظر: هؤلاء كبار المنظرين وهذه أقوالهم فما بالك بمن دونهم ؟!

ماذا لو لم يتبن المسلمون هذا المنهج المعتزلي في الانتصار للدين بالفلسفة والمنطق والنقاش العقلي الجدلي ؟

ماذا لو ترك المعتزلة ومن وافقهم من علماء الكلام العقل المسلم المفكر يعمل في مجراه الطبيعي ينظر ويبحث في الكون وما فيه فيخترع ويطور ما فيه النفع والمصلحة للانسان والكون ؟

ماذا لو اسْتُغلت هذه القدرات العقلية من آلاف المفكرين المسلمين في العلوم الطبيعية استكمالاً لمسيرة العلم ؟

لكان عندنا المئات وربما الآلاف من أمثال الحسن بن الهيثم والخوارزمي وابن سينا وغيرهم من علماء الطبيعة.

ماذا لو ترك هؤلاء الفلاسفة الكبار الجدال في الالهيات بما لا طائل من وراءه إلا الظن والوهم وأفرغوا جُلَّ طاقتهم وقدراتهم العقلية في مزيد من البحث والاكتشاف في العلوم الطبيعية وحثوا الناس على ذلك وأرشدوهم إليه ؟

لو فعلوا ذلك لأقبلت عليهم الأمة ولجعلوهم أئمة ومنارات يهتدى بها ولمات الواحد منهم وقد ترك مكانه العشرات بل المئات من التلاميذ النوابغ لاستكمال مسيرة العلم والبحث بدلاً من تكفيرهم وذمهم والتنفير منهم لسوء اعتقادهم وكلامهم في الدين بالتأويل

فترى الواحد منهم يموت ولا عزاء له وقليل من يحمل رسالته من بعده وللأسف هذا هو الذي حدث مع المعتزلة والفلاسفة والحكماء عبر التاريخ بسبب تفسير نصوص الدين وفق قواعد الفلسفة.

وهذا المنهج الفلسفي في تأويل الدين لم يأت بخير
فناهيك عما ذكرت لك من كلمات حيرة وندم لكبار الفلاسفة والمتكلمين
فعلى صعيد آخر لم يهتد الناس بهذا المنهج ولا دخلوا في دين الله أفواجاً ولا انتفع به السواد الأعظم من المسلمين بل ذاقوا منه الويلات

فكم من صراع واضطهاد حصل بين المعتزلة والأشاعرة يستقوي أحدهم على الآخر بكل ما يستطيع من قوة تصل أحياناً إلى السجن والتعذيب والقتل ؟!

وكم من حروب طاحنة حدثت في الأندلس والمغرب العربي بين جيوش الموحدين وهم أشاعرة يقودهم محمد بن تومرت الأشعري أحد تلامذة أبي حامد الغزالي
وقد ادعى المهدوية وكان يلقب بالمهدي
وبين القبائل وجيوش دولة المرابطين وهم مالكية لا يعرفون التأويل.

فكان الموحدون يكفرون هذه الأمم المسلمة لأنهم لا يعرفون التأويل ويصفونهم بالمشبهة المجسمة الخارجين عن الاعتقاد الصحيح.

فلم يكتف الصراع المذهبي والاختلاف في التأويل بسلب عقول الأمة واشغالها بما لا ينفعها بل سلبها الأفراد والأرواح كذلك !!

لذلك أقول: إن أعظم جناية على المسلمين هي جناية المعتزلة بدمج الفسلفة بالدين
ولو تُرِك الدين وتركت نصوصه كما هي وكما فهمها المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين من غير دمج بأوهام الفلاسفة وتأويلات المعتزلة لسار العقل المسلم في نشاطه الطبيعي في استكمال مسيرة العلوم التي بدأها المسلمون قبل أوروبا بسبعة قرون أو أكثر.

ولعلنا نحن المسلمون لدينا الآن في القرن الحادي والعشرين مستعمرات على كوكب المريخ وأقمار كوكب زحل سابقين في العلم والحضارة جميع أمم الأرض
ولا حول ولا قوة إلا بالله العليم الحكيم.

فالحاصل أن المسلمين تضرروا أعظم الضرر من هذا المنهج الذي أحدثته المعتزلة ضرراً بالغاً في دينهم وفي عقولهم وحضارتهم
ولكان أولى وأرشد الاكتفاء بفهم الدين ونقل نصوصه من غير تأويل ولا اقحام للفلسفة والمنطق بل يتم الفصل بينهما ليكون العقل في مجراه الطبيعي في تطوير العلوم والأفكار الانسانية وأما الدين فيكون كما جاء به النبي والمسلمون الأوائل
والله عز وجل يقول: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}

وهذا الكلام لا يقال فقط للتاريخ وإنما هو بالأساس رسالة صادقة إلى الدعاة والمثقفين في هذه الأيام ألا ينهجوا هذا المنهج وألا يخطو نفس خطوات من قبلهم.

ولا تقول: هذا من باب الغيرة على الدين ونشره والدعوة إليه
ولا من باب احترام العقل أو تنوير الناس ..

لا تسلكن ذاك الطريق وإن كنت حسن النية والقصد فالله عز وجل يقول (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فالدين الحق قوته في ذاته
وغاية الدين هو هداية الناس إلى معرفة الله وعبادته وفعل ما يحبه ويرضاه.

أما اشغال العقول بالخلاف والجدال والتعصب ثم القاء التهم بالتكفير والتبديع من جانب وبالجهل والتخلف من الجانب الآخر فليس من وراء ذلك نفع لا للدين ولا للفرد ولا للمجتمع.

قل الحق وامض في طريقك ودع الناس تميز بين الحق والباطل فالله يهدي من يشاء ويضل من يشاء (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

ولا تكرر أخطاء من سبقك فتبذل الجهد وتشغل العقل وتضيع الوقت ثم لا فائدة بعد ذلك لك أو لأمتك

قال الله {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}

والحمد لله رب العالمين.

فلاسفة الاسلام وصراع الدين والفلسفة

نبذة عن فلاسفة الاسلام:

فلاسفة الاسلام هم الفلاسفة أبناء الحضارة الاسلامية الذين ولدوا في بلاد الاسلام وورثوا الثقافة الاسلامية

وعلى هذا فليس شرطاً أن يكونوا من المنتسبين للدين الاسلامي أو من معتنقيه

وكثير منهم ولدوا مسلمين ثم صاروا ملاحدة أو لادينين.

والالحاد المقصود هنا هو ترك الأديان والشرائع التي جاء بها الأنبياء وعدم الاعتراف بها كأديان وشرائع من عند الله

وليس المراد بالالحاد أي الكفر بوجود الاله الخالق القادر

فأكثر الفلاسفة يؤمنون بالرب والخالق ولكنهم يكفرون بالأديان والشرائع.

فالفليسوف هو باصطلاح عصرنا لا ديني أو ربوبي

والفلاسفة ربوبيون في الجملة وقل منهم من يعتقد الاسلام ويعظم شعائره.

هذا من الناحية العقدية لدى الفلاسفة أما في مجال العلوم والفنون فكانوا أبرع الخلق آنذاك وكانوا هم أهل الاختصاص في الطب والحساب والهندسة والفلك والجغرافيا والأدب والموسيقى وغيرها من أنواع العلوم والفنون.

وكانوا يلقبون بالحكماء ومنه أخذ الناس قديماً وصف الطبيب بالحكيم

فهم أهل العلم والطب والحكمة

وهم أهل الرأي والمشورة لدى كثير من حكام المسلمين عبر التاريخ.

وإنما نفر الناس منهم لأمرين:

1- كلامهم في الإلهيات بما يخالف الشريعة وكلامهم في الغيبيات بمحض العقل والرأي فليس عندهم إلا الظن والخيال وإن الظن لا يغني من الحق شيئا.

2- احتقارهم واعتزالهم لعامة الناس وأنهم ليسوا أهلا لتلقي العلوم فهم أقل منهم عقلاً وعلماً ولا يرتقون الي مقامهم وكلامهم

وليس من المفيد في تصورهم تعليم عوام الناس الفلسفة ومعرفة أسرار الكون والكلام في الالهيات فهذا فقط لمن يرتقى لمستواهم الفكري.

وقد اشتد نكير الفليسوف ابن رشد الحفيد في مواضع كثيرة من كتبه ككتاب تهافت التهافت وكتاب مناهج الأدلة وكتاب فصل المقال

اشتد نكيره على أبي حامد الغزالي لأنه قرَّب العلوم والحكمة لعوام الناس وزعم أن الغزالي خالف بذلك نصوص الشريعة إذ أن العوام ليسوا أهلاً لتلقي العلوم ولا تبلغ عقولهم أسرار الحكمة !!

وأن للشريعة ظاهر وباطن فالظاهر هو ما يتعلمه الناس من ظاهر نصوص الشريعة في العقائد والعبادات والمعاملات

وأما التأويل ومعرفة الحقائق الالهية وأسرار الكون فهذه علوم الباطن وعلوم الحقيقة ولا يجوز مشاركتها لعامة الناس إنما هي للخواص فقط !

ومثل هذا التفكير السطحي يذكرني ببعض المثقفين في عصرنا ممن يدعون العلم والتنوير ثم هم يروجون للناس أنهم غير مستعدين للديموقراطية

وأن هذه الشعوب الجاهلة النامية لا يصلح معها تطبيق الديموقراطية ومباديء حقوق الانسان وأنهم ليسوا أهلاً بعد للمعرفة والتنوير الثقافي الحداثي ..

فتنازلوا عن أهم وظائفهم وأسمى أهدافهم لو كانوا يعقلون !

وتركوا الناس في جهلهم كسلاً منهم وجشعاً وطمعاً في الثروات والمصالح الشخصية

بدلاً من الصبر والكفاح من أجل تعليم الناس والنهضة بالمجتمع.

ومن أجل هذا الاستعلاء نفر الناس من الفلاسفة وهجروهم ولم تكن لهم قواعد شعبية بينهم

وياليتهم انشغلوا بما يحسنوه واكتفوا بالعمل في تخصصهم العلمي ونشروا العلم بين الناس وتركوا الكلام في الإلهيات والجدليات محض الظن والرأي

لكان لهم شأن آخر في العالم الإسلامي ولكانت لهم مدارس علمية مستمرة تنشر آثارهم بين الناس وتعمل على تطوير العلم النافع ومنافسة الأمم المتقدمة.

دعوى اضطهاد الفلاسفة

هنا نقطة لابد من الوقوف عندها ألا وهي دعوى اضطهاد الفلاسفة في زمن الخلافة الاسلامية واعتبارهم شهداء الرأي !

هذا الكلام على اطلاقه فرية يكذبها التاريخ الذي سطَّر أحوال الفلاسفة وسيرتهم

نعم كان هناك اضطهاد وصراع بين رجال الدين من فقهاء المذاهب السنية المختلفة (سلفية وأشعرية وماتريدية) ضد الفلاسفة والباطنية

لكن على صعيد الدولة ومعاملة الحكام فالأمر كان مختلفاً في غالب الأوقات

ولو نظرت إلى سير هؤلاء الفلاسفة لرأيتهم كانوا في زمن الخلافة الاسلامية هم صفوة المجتمع وهم النخبة وهم حاشية الملوك والأمراء والأعيان وجلسائهم ومستشاريهم كذلك.

وما عليك إلا أن تذهب لسيرة أحد هؤلاء الفلاسفة وستجده طبيب الملك أو طبيب الوزير أو مستشار للملك أو للأمير أو وزير الملك أو كبير الأطباء أو غير ذلك من المناصب الرفيعة.

أيضاً من الناحية الفكرية والعقدية كانت لهم مساحة من الحرية لا بأس بها ربما تزيد أو تنقص بحسب المناخ السياسي وتغير الدول وصراع المذاهب

وما ينتج من هذا الصراع من تعصب مذهبي إلا أنه كانت لهم مساحة وقدر من الحرية

وعندك مثلاً الفليسوف الشهير أبو بكر الرازي (ت311) وكان رئيس مارستان الري وصنف كتاباً سماه مخاريق النبوة يسخر فيه من فكرة النبوة والأنبياء وشرائعهم !

ترى أين حد الردة وأين قتل المرتد ؟!

نحن الآن في القرن الحادي والعشرين ميلادي ولو كتب كاتب في بلاد الاسلام كتاباً وسماه مخاريق النبوة لما أمن على نفسه وهو يمشي بين الناس.

أما في (العصور الوسطى) فقد كتب هذا الرجل مثل هذا الكتاب وعاش في سلام ؟!

فالاضطهاد بمعنى القتل والتنكيل بالفلاسفة غير صحيح على اطلاقه والتاريخ يكذبه

أما الاضطهاد بمعنى منع تدريس كتب وعلوم الفلاسفة فهذا حصل بعد ذلك في فترة متأخرة بسبب انتشار المدارس الاسلامية وتحكم الأشاعرة في نظام الدولة كما سيأتي.

ولعل لقائل أن يقول:

ألم يقتل صلاح الدين الأيوبي الفليسوف الشهير أبو الفتوح شهاب الدين السهروردي ؟

ألم تحرق كتب ابن رشد الحفيد ؟

نعم قد حصل هذا مع بعض الفلاسفة وحصل كذلك مع بعض أتباع المذاهب الدينية والفكرية الأخرى ليس محصوراً بالفلاسفة فقط

فهذا الاضطهاد كانت أسبابه التعصب المذهبي وتآمر خصوم الرجل وحساده عليه حتى نالوا منه

وقد ذاق ويلات هذا التعصب جميع الملل والطوائف ولم يسلم منه أحد

والتاريخ مليء بتعصب الشيعة ضد السنة والسنة ضد الشيعة والسلف ضد المعتزلة والمعتزلة ضد السلف والأشاعرة ضد الحنابلة والحنفية ضد الشافعية والعكس أيضاً وغير ذلك كثير.

ليس السهروردي فحسب الذي قتل ..

الحلاج الصوفي قتل ونعيم بن حماد السلفي مات في سجنه لما رفض القول بخلق القرآن

وأحمد بن حنبل امام أهل الحديث عذب وامتحن في هذه الفتنة كذلك

ومحمد بن تومرت الأشعري قتل الآلاف من مخالفيه لأنهم مجسمة

وأبو حامد الغزالي كانت كتبه تحرق في الأندلس وكان الفقهاء هناك يحذرون من كتبه ويفتون بحرقها

فهذا التعصب ذاق ويلاته الجميع بلا استثناء وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ما الذي قضى على انتشار الفلسفة والعلوم

هنا يأتي السؤال: ما الذي قضى على انتشار الفلسفة والعلوم في العالم الاسلامي ؟

ما هي العوامل التي أدت إلى انحسار المنهج الفلسفي والعلمي في حياة الشعوب المسلمة ؟

سمعت مقطع من محاضرة لعالم الفيزياء الأمريكي نيل ديغراس تايسون وقد طرح مثل هذا السؤال فقال ما معناه:

أسماء أبراج النجوم يونانية ورومانية بينما أسماء النجوم هي أسماء عربية في الغالب لذلك علينا أن نتسائل كيف حدث هذا ولماذا تحمل هذه النجوم أسماء عربية؟

هذا حدث بسبب أن هناك فترة زمنية معينة تمتد من سنة 800 إلى سنة 1100 وهي عبارة عن 300 سنة

في هذه المدة الزمنية كانت عاصمة العلم هي بغداد وكانت منفتحة جداً على جميع الثقافات والأديان وكان الجميع يشارك في المسيرة العلمية

في هذه الفترة الزمنية حصل تطور علمي في مجالات عدة شملت الهندسة والأحياء والطب والرياضيات ... لذلك كان لدى العرب الأحقية في تسمية مكتشفاتهم بأسماء عربية والتي هي عبارة عن مكتشفات عظيمة ندين لها حتى الآن.

لكن حدث شيء ما قلب الموازين في القرن الثاني عشر قام رجل الدين أبو حامد الغزالي بتجريم الرياضيات والفلسفة إذ نسبها للشيطان

ومن المعلوم بهذه الفلسفة لن يخرج شيء جيد من وراءها لذلك انهارت الحضارة الاسلامية ولم ترجع منذ ذلك الزمن... . ه

هذا التحليل من أ.تايسون لتلك الحقبة الزمنية يستفاد منه فوائد:

1- ازدهار العلوم لم يكن طوال تاريخ الاسلام وإنما في الفترة ما بين (800-1100م) يعني (200-500ه) تقريباً ثلاثة قرون هي العصر الذهبي للعلوم في الاسلام.

2- كان الارتباط وثيق بين العلم والفلسفة فالفلاسفة كانوا هم علماء العصر آنذاك.

3- اشتعال الصراع بين الفلسفة والدين في تلك العصور والذي انتهى بهزيمة الفلاسفة وانحدارهم وخمول ذكرهم ونفور الناس منهم.

4- أبو حامد الغزالي (ت 505ه-1111م) عالم الدين وإمام المسلمين آنذاك هو الذي قضى على الفلسفة والعلم فأفتى بتحريم الفلسفة وكُفر الفلاسفة وخروجهم من الدين الأمر الذي جعل الناس يخافون من الفلسفة والفلاسفة وينفرون منهم وبذلك تنهار القواعد الشعبية للفلاسفة وتضعف مسيرتهم واستمرار وجودهم في الأجيال القادمة.

5- استمرار الفلاسفة كان يعني استمرار التطور العلمي في عصور الخلافة الاسلامية واستكمال مسيرة التقدم والنهضة وذلك قبل ظهور النهضة الأوروبية بقرون.

هذا التحليل الجيد في مجمله يعبر عن الواقع وينعى حال المسلمين للأسف

وثمة حدث آخر مهم لم يذكره الأستاذ تايسون وهذا الحدث له الأثر الأكبر في انهيار المنهج الفلسفي العلمي في العالم الاسلامي ألا وهو انشاء المدارس الاسلامية.

عصر المدارس الدينية

المدارس الدينية الاسلامية التي أنشأها الوزير نظام الملك (ت485ه) لتدريس علوم الاسلام والتي عرفت بالمدارس النظامية

وكان الغرض منها احلال المذهب السني الأشعري محل المذاهب الشيعية المختلفة والتي كانت تحكم أهم حواضر العالم الاسلامي وقتها.

وكان نظام الملك وهو سني أشعري متعصب وزيراً للسلاطين السلاجقة (السنة) الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة بني بويه (الشيعة)

فحرص الوزير على نشر المذهب من خلال فكرة المدارس ونشرها في بلاد الاسلام

وهذه المدارس هي أساس نظام التعليم الحالي الذي يعتمد على المدارس والجامعات المتخصصة في تعليم الناس وتأهيلهم للوظائف العلمية المطلوبة

وكانت لهذه المدارس الفضل في نشر علوم الاسلام واحلال الفلسفة الاسلامية (علم الكلام) محل علوم الفلاسفة

وأقبل الناس عليها إذ هي الجهة الرسمية للتعليم آنذاك

ويتولى التدريس فيها كبار علماء الاسلام

وأيضاً لما تقدمه من رواتب نظير العلم والتفرغ ثم الحصول على إجازة (شهادة) رسمية تؤهل صاحبها للعمل في وظائف الدولة كالتدريس والافتاء والقضاء.

ونظام الملك كان من المقربين إلى أبي حامد الغزالي وغيره من فقهاء الاسلام الأشاعرة وكان مهتماً بنشر المذهب الشافعي والأشعري

وكان الامامين أبو حامد الغزالي وأبو اسحاق الشيرازي في مقدمة من تولوا التدريس في هذه المدارس

ومُنِع تدريس علوم الأوائل فيها بفتوى شيوخ الاسلام وقتها

واقتصروا على تدريس علوم الشريعة وبعض العلوم المساعدة كعلم المنطق ومبادئ الحساب.

وانتشرت هذه المدارس واستمرت حتى صارت هي النظام الرسمي للتعليم في معظم بلدان وعواصم العالم الاسلامي

وبطبيعة الحال لا وجود للفلاسفة ولا علومهم فيها

الأمر الذي كان له عظيم الأثر في هجر هذه العلوم واندثارها.

وما نسبه أ/ تايسون إلى الغزالي من تحريم النظر في علوم الفلاسفة وكتبهم

حتى ما كان منها من علوم الطبيعة النافعة مثل الرياضيات والجغرافيا

فهذه نسبة صحيحة في مجملها

وقد استنكر كثير من الأشاعرة والكتاب المعاصرين نسبة هذا الكلام لأبي حامد الغزالي

وتجد على صفحات الانترنت الكثير من الردود على الدكتور تايسون وكلامه السابق

ولكن واقع التاريخ خلاف ذلك

ربما أخطأ تايسون في قوله إن الغزالي (نسبها للشيطان)

فالغزالي لم يستقبح هذه العلوم في ذاتها لكنه أفتى بمنعها من باب منع الوسائل وسد الذرائع

إذ قال أبو حامد الغزالي وهو يتكلم على أقسام علوم الفلاسفة ما نصه:

أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم وليس يتعلق منه شيء بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتهم بعد فهمها ومعرفتها
وقد تولدت منها آفتان: الأولى: من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسنة فيكفر بالتقليد المحض
ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجورهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين
وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه
وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق وإن كان الحمق والجهل يلزمهم في غيرها فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني وفي الإلهيات تخميني لا يعرف ذلك من جربه وخاض فيه فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحد بالتقليد ولم يقع منه موقع القبول بل تحمله غلبة الهوى والشهوة الباطلة وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها
<u>فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ولكن لما كانت من مبادئ علومهم سرى إليه شرهم وشؤمهم فقل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى</u> . ه

المنقذ من الضلال ص138-139

فهنا أفتى الغزالي بمنع النظر في علوم الفلاسفة الطبيعية لأنها في رأيه مدخل لإثارة الشبهات العقدية عند من يتعلمها من المسلمين !

وكان العمل على هذا في المدارس النظامية التابعة للدولة والتي كانت وقتها قبلة الأجيال الراغبة في طلب العلم

لذا خلت المدارس الاسلامية من هذه العلوم فلم يدرسوها ولم يطوروها ولم يحاولوا حتى فصلها عن كلام الفلاسفة وعقائدهم المنحرفة !

وأصبحت العلوم معزولة عن مدارس المسلمين وأصبح تدريسها قاصراً على الفلاسفة ومن أقبل إليهم

وطبعاً في نطاق محدود وعلى المستوى الفردي وليست تحت رعاية الدولة

إذ قد تخلت أكثر الدول الاسلامية وقتها عن رعاية هذه العلوم وانشاء المدارس لها

والسبب الرئيسي هي فتاوى التحريم والتكفير للفلاسفة وعلومهم

وفشل فقهاء الاسلام في فصل العلوم النافعة عن الآراء الفلسفية والعقدية

والحق أنهم لم يفشلوا بل لم يحاولوا أصلاً !!

يمكن أن نعتبر هذا هو اجابة السؤال

وهو التحليل التاريخي والمنطقي لانقراض الفلاسفة العلماء

لكن في نظري هذا جزء من الاجابة وليست كلها

لذا يبقى السؤال قائماً: ما الذي حال بين المسلمين وبين التقدم العلمي بغض النظر عن هزيمة الفلسفة الالهية ونفور الناس منها ؟

لقد بدأت النهضة في أوروبا على يد الفلاسفة أيضاً

وحصل الصدام بين الفلاسفة ورجال الدين كما حدث في بلاد الاسلام كذلك

لكن ثمة اختلاف ظهر وهو الفصل بين الفلسفة والعلم

فهذا الارتباط الوثيق بين الفلسفة والعلم في حضارة الاسلام لم يكن بنفس القوة في العالم الغربي إذ بالتدريج ظهرت طبقة من العلماء لا همَّ لهم إلا البحث والاستكشاف العلمي ولم يلتفتوا كثيراً إلى قضايا الفلسفة والوجود ومقابلة الدين بالعقل

ثم أخذت هذه الطبقة في الانتشار والكثرة

واعتمدوا على المنهج التجريبي في اختبار العلوم وليس المنهج العقلي الفلسفي

وبذلك انفصل العلم الطبيعي عن الفلسفة العقلية

واستطاع العلم التجريبي في أوروبا الانتصار على رجال الكنيسة والفلسفة معاً !

لكن يبقى السؤال أيضاً: ما الذي منع المسلمين من هذه التجربة ؟

- ما الذي منعهم من الفصل بين الفلسفة والعلم ؟

- هل هم رجال الدين الاسلامي السبب وحدهم في هذه القضية كما قال تايسون ؟

مع أن رجال الدين في أوروبا كانوا في نفوس العامة والحكام أعلى قدراً وأقوى سلطة وأكثر نفوذاً فلماذا فشل أولئك ونجح هؤلاء ؟

- هل كانت الشعوب المسلمة أكثر جهلاً أو أكثر تديناً من شعوب أوروبا ؟

بالعكس الشعوب المسلمة آنذاك كانت أعلم وأرقى بكثير من شعوب أوروبا في القرون الوسطى عصور الظلام كما يسمونها

كذلك الدين عند الأوربيين آنذاك كان متعمقاً في نفوسهم والحروب الصليبية خير شاهد

ـ هل السلطة السياسية كانت أكثر عدلاً ورشداً في أوروبا منها في العالم الاسلامي فشجعت وناصرت العلم ضد رجال الدين ؟

بالعكس كانوا أمراء اقطاعيين يسعون للتفرد بالسلطة وجمع الثروات واستعباد الناس مثلهم مثل كثير من حكام المسلمين ولا فرق.

ـ إذاً ما هي الأسباب الحقيقية التي كانت وراء نجاح مسيرة التقدم العلمي في أوروبا وفشلها في بلاد الاسلام ؟

ـ كيف استطاع الأوروبيون الفصل بين الفلسفة العقلية والعلم التجريبي ومن ثمَّ الفصل بين الدين والعلم ؟

مع أنهم كانوا آنذاك أكثر تخلفاً وأشد تديناً ورجال الدين هم الذين يحكمون ولديهم سلطة ونفوذ على الحكام والرعية معاً وكانت الحرب شديدة ودموية بين رجال الكنيسة وبين الفلاسفة والعلماء ؟

أعتقد أن الاجابة على هذا السؤال يحتاج إلى التفكير الجماعي والجهد الجماعي من المحللين المنصفين حتى يمكن من خلاله معرفة هذه الأسباب

فمن المؤكد أنها أسباب متنوعة وليست سبباً واحداً ولابد من معرفتها أولاً إذ لابد كي تحل المشكلة أن تعرف أسبابها الحقيقية ابتداءً.

بداية نعود للتعليق على كلام الأستاذ نيل تايسون في بعض النقاط:

1- الغزالي لم يحرِّم الرياضيات مطلقاً ولم ينسبها للشيطان كما ادعى

بل هو شنع على الفلاسفة ونهى عن دراسة كتب الفلسفة ثم بالغ للأسف وأفتى بمنع الرياضيات وعلوم الطبيعة من باب تحريم الوسائل وسد الذرائع.

2- لا يمكن اختزال أسباب توقف مسيرة العلم في فتاوى ومواقف رجال الدين مهما بلغ شأنهم ومهما بلغت سلطتهم فالأسباب الخارجية وحدها لا تستطيع القضاء على المنهج الفكري إذ لابد من أسباب داخلية قوية أضعفت المنهج وأسقطت أتباعه.

3- الفلاسفة هم أيضاً أضعفوا أنفسهم بانشغالهم بالكلام في الالهيات والصدام مع مباديء الدين والجهر بذلك والطعن في النبوات

كذا اعتزالهم لعوام الناس والترفع عن مجالستهم

كل هذا أفقدهم القواعد الشعبية ونفور الناس منهم

فالأسباب الداخلية لخمول المنهج الفلسفي في العالم الاسلامي كانت أحد أهم الأسباب التي جعلت الناس تعادي الفلاسفة وتراهم قوم زنادقة ملاحدة لا يدينون بدين ولا يحترمون المقدسات مما جعلهم جاهزين لاستقبال فتاوى التحريم والتكفير للفلسفة والفلاسفة من رجال الدين.

فالناس ليسوا أغبياء حتى ينساقوا وراء رجال الدين بلا فهم ولا عقل

هذا التصور عن عامة الناس هو في الحقيقة من آثار الفلاسفة السيئة في الفكر العربي المسلم وهو احتقار العوام وتصويرهم على أنهم مجموعة من الأغنام ينساقون وراء الراعي بلا فهم ولا عقل !

فتجد المثقف فينا يقول: مشكلتنا هي العوام الذين لا يفهمون !

ولو أنصف من نفسه لأدرك أنه هو المشكلة باحتقاره الناس وعيب الجهل فيهم بدلاً من الأخذ بأيديهم للعلم والنور !

العوام هؤلاء هم الناس الذين نعيش معهم ..

هم الأهل والأصدقاء ..

هم العمال والصناع المهرة الذين نحتاج إليهم في شئون حياتنا ..

هم التجار الأذكياء الذين يقنعوك بشراء منتجاتهم ..

هؤلاء وغيرهم من عامة الناس هم الذين دأب الفلاسفة على احتقارهم والترفع عن مجالستهم ولازال هذا الأثر السيء في نفوس كثير من النخبة المثقفة إلى الآن.

وهؤلاء العوام عندهم من الفهم والنباهة ما يميزون به الناس وأحوالهم

ولولا ما رأوه من أحوال الفلاسفة وانحلالهم من الدين والطعن في مقدساته لما انساقوا وراء فتاوى رجال الدين كذا اعتزال الفلاسفة للناس وترفعهم عن مجالستهم أورثهم بغضاً في قلوب الناس ونفوراً من دعوتهم ومنهجهم.

مرة أخرى يبقى السؤال: ما الذي حال بين المسلمين والتقدم العلمي بغض النظر عن هزيمة الفلسفة الالهية ونفور الناس منها ؟

الجواب بالاضافة إلى ما سبق: هو الصراع الفكري الديني الفلسفي بين رجال الدين والفلاسفة من جهة وبين رجال الدين بعضهم مع بعض من جهة أخرى

وكما قلت في الكلام على المعتزلة أنهم شغلوا العقول المفكرة المحبة للحكمة والعلم والبحث عن المعرفة
شغلوها بالتأويلات والجدليات وتحقيق مسائل الاختلاف بين الفرق والمذاهب فصار العقل المسلم منشغل بالتفكير والتحقيق في الأدلة والحجج المنطقية التي يستدل بها على صحة مذهبه ثم استفراغ الجهد العقلي والفكري في الرد على استدلالات مخالفيه ومحاولة ابطالها !
وكم من آلاف العقول في الثقافة الاسلامية على مر الأجيال انشغلت بالقيل والقال والتحقيق والرد وأهدروا في ذلك الوقت والجهد وطاقة العقل وذكائه.

ولو تركوا العقل المسلم المفكر يعمل في مجراه الطبيعي ينظر ويبحث في الكون وما فيه فيخترع ويطور ما فيه النفع والمصلحة للانسان والكون واسْتُغلت هذه القدرات العقلية في استكمال مسيرة العلم لكان عندنا المئات من أمثال الحسن بن الهيثم والخوارزمي وابن سينا وغيرهم من علماء الطبيعة.

نعم الحقيقة التاريخية أن رجال الدين انتصروا على الفلاسفة في بلاد الاسلام ولكن هذا الانتصار لم يكن الانتصار الكامل التام
بل ما انتصر رجال الدين على الفلاسفة حتى أخذوا أصول وقواعد الفلسفة والمنطق ودمجوها بأصول الاسلام دمجاً من الصعوبة البالغة فصله مرة أخرى.

فلو قسمنا الاسلام إلى عقيدة وشريعة
فما هي العقيدة التي تدرس في معاهد المسلمين؟
إنها عقيدة قائمة في أصولها واستدلالاتها على علم الكلام والمنطق الذي هو مأخوذ من الفلاسفة ومنهجهم وطريقتهم.

حتى ابن تيمية امام الحنابلة والسلفيين تجده في عامة كتبه يرد على المخالفين لمذهب السلف من الأشاعرة والفلاسفة وأهل الكلام بحجج من جنس حججهم الفلسفية والعقلية.

وأبو حامد الغزالي المتهم بالقضاء على الفلسفة هو نفسه يعد من أعظم المؤسسين للفلسفة الاسلامية والتي عرفت بعلم الكلام
حتى قال تلميذه أبو بكر ابن العربي المالكي (ت543ه):
شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع. ه
(سير أعلام النبلاء 327/19)

فالعقيدة الاسلامية الآن عند عامة الباحثين قائمة على الفلسفة وعلم الكلام إما انتصاراً له أو رداً عليه.

هذا بالنسبة لعقيدة الاسلام أما في الشريعة فأحكام الشريعة واستنباطها والاجتهاد في معرفتها قائم على علم أصول الفقه وهو في مضمونه مأخوذ من قواعد المنطق وعلم الكلام أيضاً
فصار الاسلام عقيدة وشريعة ممزوج بالفلسفة والمنطق مزجاً من الصعب فصله على هذا الحال.

وكان الناس في أول الاسلام في عافية في دينهم وسلامة في فطرهم وبساطة في التعبد لربهم

وكان الفلاسفة الأوائل الذين بدأوا ترجمة العلوم مع بداية الدولة العباسية يحرصون على ترجمة كتب الفلك والطب والحساب والهندسة والأدب ونحوها من كتب العلوم والفنون المفيدة في الجملة.

حتى جاءت المعتزلة وجاء الخليفة المأمون فأخذت كتب الفلسفة الاهتمام والأولوية في الترجمة
ودخلت الفلسفة في الدين فأشغلت النفوس وأرهقت العقول
وصار أهل الفكر والنظر مشتغلين بالانتصار للمذهب والرد على المخالف ثم اطلاق الأحكام والتهم بالتكفير والتبديع والهجر والتعصب للمذهب
وإلى يومنا هذا نعاني من الصراع الفكري بين طوائف المسلمين وتعصبهم بعضهم على بعض.

والمعتزلة والأشاعرة عموماً انشغلوا وشغلوا الناس معهم بعلم الكلام الديني وتركوا وأهملوا الفلسفة الطبيعية والعلوم النافعة ولم يرفعوا بها رأساً

وياليتهم صنعوا مع هذه العلوم النافعة مثل ما صنعوه في علم الكلام
ياليتهم حاولوا فصل العلم عن الفلسفة فأخذوا النافع وتركوا الباطل

للأسف سدوا الباب من رأسه ولم يحاولوا أصلاً
حتى جاءت النهضة الأوروبية وأخذوا هذه العلوم وطوروها بالبحث والتجربة واستطاعوا الفصل بين العلم القائم على التجربة والدليل وبين الفلسفة القائمة على الرأي والنظر

وكل ما تراه الآن في بلاد المسلمين من مدراس وجامعات للعلوم والهندسة والفيزياء والكيمياء وغيره
الفضل فيه لعلماء الغرب الذين أخذوا علوم وفلسفة علماء الحضارة الاسلامية وطوروها وميزوا بين العلم والفلسفة
ثم صدَّروها إلينا مرة أخرى بصورتها الحالية لنتعلمها منهم بعد أن كنا نعلمهم !!

وأحب أن أنبه النخبة المثقفة التي تمجد المعتزلة وتصورهم للناس على أنهم أصحاب الفكر الحر المستنير
أحب أن أُلفت نظرهم إلى أن المعتزلة لم يكن لهم كبير اهتمام بعلوم الطبيعة وأكثرهم لم يكن له براعة أو نبوغ في الطب أو الفلك أو الحساب أو الهندسة أو غيرها من العلوم النافعة
لن تجد مثل هذا عندهم إلا في القليل منهم

بل أقامت المعتزلة حرباً فكرية كلامية على الفلاسفة الحكماء أصحاب العلوم والفنون
وكان بينهما صراعاً فكرياً كبيراً يصل إلى الاتهام بالكفر والزندقة
(أيوة المعتزلة كانوا مكفراتية هم كمان)

لقد استطاع الفلاسفة والعلماء في أوروبا الفصل بين الفلسفة وبين العلم القائم على التجربة والحقائق والأدلة المادية
كذلك إذا نظرت إلى الثورة الفرنسية وما أحدثته من تغيير هائل في موازين القوى
وما ترتب بعدها من ثقة الناس في العلوم وتشككها في تعاليم الكنيسة سيظهر لك كيف استطاع العلماء والمفكرين في أوروبا الاقتراب من عامة الناس والتعاون مع مختلف طبقات الشعب فلم يعيشوا في عقدة الانعزال عن العامة التي تقيد بها أسلافهم من فلاسفة الاسلام بل استطاعوا كسب القواعد الشعبية التي مكنتهم من الانتشار والانتصار.

هذه هي اجابتي على السؤال وهذا هو تحليلي لأسباب فشل التجربة العلمية في العالم الاسلامي ونجاحها في أوروبا

فرجال الدين وأهل الكلام وفتاواهم ومواقفهم المتشددة تجاه الفلسفة والعلوم كانت سبباً رئيسياً في تخلف المسلمين وتراجع النهضة العلمية
ولكن ليسوا وحدهم يتحملون المسئولية بل الفلاسفة والمعتزلة يتحملون معهم مسئولية فشل التطور العلمي باشغالهم للعقول بفكرة المزج بين الفلسفة والدين وما تولد منها مما يسمى بعلم الكلام أو الفلسفة الاسلامية أو الالهيات أو غير ذلك من المسميات والطرائق والتي هي باعتراف كبارهم كما سبق نقله ليس من وراء الخوض فيها كبير فائدة

كذلك اعتزال الفلاسفة لعامة الناس أفقدهم القواعد الشعبية الازمة لاستمرارهم وبقاء منهجهم وعلومهم.

تكرار أخطاء الماضي في واقعنا اليوم

يبقى الكلام على النخبة المثقفة في عصرنا ومحاولة احيائها لهذا الصراع الفكري العقيم واعادة اشغال العقول المتخصصة في العلوم بالجهد في تحصيل الأدلة العلمية المادية لاثبات صحة الأديان لدى المؤمنين
أو تحصيل الأدلة العلمية لاثبات خرافة الأديان من الناحية الأخرى عند الملحدين.

فهل نعيد احياء الصراع ونتحمل عواقبه ؟!

أم نستفيد من التجارب السابقة ما نجح منها وما فشل أيضاً
ونبني عليها مسيرة العلم والتقدم بأن ندع التعبد بالدين والعمل بنصوصه كما هي وكما فهمها المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين من غير دمج بأوهام الفلاسفة وتأويلات المعتزلة وأهل الكلام

وأن ندع العقل المسلم يعمل في نشاطه الطبيعي في استكمال مسيرة العلوم بلا قيد أو شرط يمنعه أو يضيق عليه

هل يستطيع المثقفون في المجتمع العربي والاسلامي التحرر من عقدة فلاسفة العصور الوسطى في اعتزال العوام واحتقارهم والتي لازال أكثرهم يعيشون فيها بالرغم من أنهم يعيبون على غيرهم العيش في أفكار العصور الوسطى !

في رأيي إذا كان الفشل عند الأسلاف مسئولية مشتركة على جميع الأطراف فكذلك لو أردنا النجاح فهي مسئولية مشتركة على جميع الأطراف.

هذا ما أراه مصداقاً لقول الله تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ) (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم)

أسئلة وأجوبة

هنا سؤال ينقسم على صورتين:

1- لو كانت المعتزلة قديماً لم تجمع بين العقل والدين ولم تلجأ لمنهج التأويل لنظر الناس لكثير من عقائد الاسلام وأحكامه على أنها أوهام وعقائد ساذجة فمنهج التأويل عند المعتزلة والأشاعرة هو الذي أقنع العقل بصحة الدين وصحة الايمان به.

2- لو ترك المثقفون في عصرنا منهج علمنة الدين أي الاستدلال بالعلوم الحديثة على صحة الدين واثباته لانتشر الالحاد ولنظر الناس لكثير من عقائد الاسلام وأحكامه على أنها أوهام وعقائد ساذجة
فالاعجاز العلمي والاستدلال بنتائج العلوم الحديثة هو الذي أقنع الناس بصحة الدين وصحة الايمان به.

وأنا تعمدت وضع الصورتين والحجتين بجوار بعضهما لتعرف كم هي أوجه الشبه بين الماضي والحاضر
فهي تقريباً نفس طريقة التفكير ونفس طريقة الاستدلال ونفس طريقة الاعتذار والتبرير

وهؤلاء الناس القديم منهم والمعاصر أراهم يعيشون في وهم كبير إذا تصوروا أن علم الكلام هو الذي نشر الاسلام وأرسخ عقائده في عموم الناس !

وهؤلاء لو أنصفوا لقالوا بعكس ما قالوا ...

فعلم الكلام هو الذي زرع الشك في قلوب المثقفين وهو الذي زرع التعصب في نفوس العامة والخاصة
وقد سبق ذكر جملة من أقوال كبار علماء الكلام وكذا مواقف بعض أتباعهم المعتصبين

وأكثر المؤمنين لا يعرفون علم الكلام وإنما هم على فطرة الاسلام كما دعا إليها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

وبنفس الجواب يقال للمعاصرين الذين يهتمون بالاعجاز العلمي وادخال نتائج وأبحاث العلم الحديث في اثبات صحة الاسلام وصحة الايمان
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وهم في الحقيقة على نفس منهج المعتزلة وطريقتهم في عقلنة الدين وعلمنته

وأقول لهم أيضاً إن عامة المؤمنين لم يؤمنوا بسبب العلم والاكتشافات الحديثة

فهذه العلوم تبحث في المادة المشهودة وفي العالم المشهود وحقيقة الايمان هي الايمان بالغيب والمؤمنون هم الذين يؤمنون بالغيب وأما العلم التجريبي فهو يبحث في الظواهر المادية.

ومن تدبر حال الناس فسيجد المؤمنين يحتجون بالعلم على صحة الدين والايمان

وكذلك الملحدون يحتجون بالعلم على بطلان الايمان

وكلٌ يصول ويجول وعند التحقيق تجد عامة أدلتهم أدلة ذاتية وليست أدلة حقيقية

فأنت إذا أردت الايمان من العلم فسيعطيك

واذا أردت الالحاد من العلم فسيعيطك

وفي الحقيقة أنت لا تأخذ العلم ..

أنت تأخذ أفكارك وتصوراتك من معطيات العلم

فالعلم لا يعطيك الايمان ولا يعطيك الالحاد ..

العلم يعطيك المعلومة وأنت الذي تفسرها وتحللها وتأخذ منها النتائج التي تقبلها نفسك ويقبلها عقلك

وأيضاً أكثر المؤمنين لا يعرفون هذه التحديات العلمية
وإنما هم على فطرة الاسلام كما دعا إليها النبي وأصحابه.

فإن قيل: إذا لم نثبت الايمان بنتائج العلم التجريبي فنحن نترك المجال للملحدين يشككون الناس في دينهم ويروجون أن العلم ضد الدين ؟

والجواب: أن التصدي لبيان تدليس المغرضين أمر محمود

ولكن هناك فرق بين أن تبين للناس حقائق الايمان بأدلة الفطرة التي يتقبلها البسطاء فضلاً عن غيرهم وبين أن تنشغل بالرد عليهم بنفس طريقتهم ومنهجهم في تلبيس العلم بالعقيدة من أجل نصرة الدين عند المؤمنين

أو من أجل محاربة الدين عند الملحدين

فطريقة ادخال العقيدة في العلم هي طريقة بها الكثير من الجدل والتدليس والتزييف أيضاً وهذا موجود عند جميع الأطراف المتصارعة فكرياً في هذا الجدل العقيم

ودين الله قوته في ذاته (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

انظر إلى طريقة القرآن لا تجد فيها المراء وكثرة الجدل

وإنما هي طريقة بسيطة تخاطب الفطرة والنفوس الزكية

وقد أخبرنا الله بقول الحق وهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)

ويعجبني هنا القصة التي حكاها محمد بن اسحاق ونقلها عنه ابن هشام في السيرة 47/1

في قصة أبرهة لما دخل مكة ليهدم الكعبة فأغار بعض قواده على بعير لعبد المطلب بن هاشم جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم فذهب عبد المطلب لمقابلة أبرهة

وظن أبرهة أنه يريد أن يكلمه في ترك هدم الكعبة ولكنه فوجئ بأن عبد المطلب يقول له:

حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي فقَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ قَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قد جِئْت لهدمه لَا تُكَلِّمْنِي فِيهِ ! قال له عبد المطلب: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. ه

وبغض النظر عن مدى صحة القصة وثبوتها فالغرض منها ومن الآيات المذكورة قبلها أنك تبلغ ما عندك فإنما أنت نذير ومبلغ ولست بالحامي ولا المدافع

فالله سبحانه يحمي دينه ورسالته ويحميك أنت نفسك إن كنت من الصادقين

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

هذا ما أردت بيانه وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

كتبه:

أحمد فوزي وجيه – القاهرة

2019/8

التعديل والزيادة

2023/1/11